الفصل الثامن عشر
جنة الخلاص

في كل مساء يحتل الرولة مرابض جديدة مخيفة من كثرة الجفاف إلى الشمال من سابقاتها، لقد أقلعت منذ وقت طويل عن التنعم بمسح وجهي في الصباح بمنديل مبلّل. في منزل الأمير كان مناحي مسؤولاً عن تقنين الماء على الرغم من أنه لم يعرف شيئاً عن مقاييس السوائل ولكنه سرعان ما أوجد طريقة لهذا الغرض. وضع حصاة ـ احتفظ بها دائماً في متناول اليد ـ في إناء خشبي صغير، ولكل فرد من أفراد العشيرة صبّ فوقها ما يكفي من الماء أو الحليب لتغطيتها. ولم يكن هذا المقدار كافياً أبداً. فالجمال التي اعتادت في المراعي الجيدة أن تعطي من أربعة إلى خمسة ليترات من الحليب يومياً أصبحت الآن تعطي أقل من ليتر واحد. ولتوفير هذه الكمية القليلة للبشر والخيول اضطر الرولة أن يقتلوا الجمال الرضيعة التي كان منظرها يدعو للأسى. هزيلة منهكة يغطيها الغبار.

وبينما كنت أحدّث الشيوخ عن بعض الأراضي الرعوية الواقعة إلى الشمال الشرقي من موقعنا قال فارس الذي سمع حديثنا: «دعنا نذهب ونستكشف «أبا رجمين» والهضاب التي خلفه، ونلقي نظرة على المراعي حتى نطمئن جماعتنا». وقررنا فوراً أن نذهب إلى تلك الأراضي المرغوبة والمحظورة. وقمنا باستطلاع

بالسيارة أنا وفارس واثنان من العبيد ـ أدّى إلى نتائج لم نكن نتوقعها عندئذ، فقد اتبعنا اتجاهاً شمالياً حتى عبرنا طريق القوافل القديم بين تدمر وبغداد الذي أصبح الرولة يسمونه «طريق الموت» لأن الإدارة الفرنسية منعتهم من اجتيازه حيث كانت خيامهم على بعد حوالي ثلاثين ميلاً عنه.

تغيّر المنظر بعد أن اجتزنا هذا «الحدّ»؛ لأن السهل الفسيح ارتفع باتجاه التلال البعيدة بنسبة تكاد لا ترى. السحب البيضاء سارت في السماء الزرقاء، هذا المنظر الممتع الذي افتقدناه طويلاً، والذي كان أول دليل على المطر رأيناه منذ أسابيع عديدة. كان العشب نامياً هنا. أكثر كثافة وأكثر طولاً وفيه أزهار. وكلما تقدمنا نحو الشمال والهضاب العالية أصبحت أغنى بالخضرة وبدأت الطيور والغزلان بالظهور أثناء تقدمنا.

وبدون توقف تابعنا سيرنا في المراعي البكر بسرعة /٢٥ ـ ٤٠/ ميلاً في الساعة على الرغم من الهضاب والروابي الكثيرة المتقاربة، حتى قطعنا حوالي /١٢٥/ ميلاً عن الخيام، ولكن ليس بشكل مستقيم لأنني ـ وأنا السائق اضطررت للقيام بدورات طويلة لتجنب خيام الأعداء. وكنا نرى أحياناً بعض المجموعات المعادية التي تظهر بصورة مفاجئة وتطلق علينا النار.ولكننا كنا دائماً خارج مرمى النيران. ودون أن نصاب بأي أذى أو نضطر لإطلاق النار، وصلنا بعد الظهر إلىمراعي **نثل** في السفوح المرتفعة من الهضاب الشمالية.

خرجنا من السيارة إلى بحر متماوج من الأعشاب والزهور، وحملت النسائم إلى أنوفنا الرائحة العطرة لهذه الأرض الخضراء. واستنشقنا بعمق الهواء المعطر، وحدقنا بأعين تواقة بهذا المنظر الخصب والسحب المطرية العالية في الأفق. وفتح فارس ذراعيه كما لو أراد أن يعانق كل شيء.

وتماوجت على عباءاتنا السيقان الطويلة الخضراء للأعشاب الناعمة، وحلقت فوقنا بسرور مغرّدة قبّرة على هضبة مزهرة عالية. بينما غنّى الهدهد عند أقدامنا. ما أشهى رائحة النعناع والمريمية! ووقفنا بهدوء شاكرين هذه الجنة التي وصلنا إليها.

خلع فارس عباءته عن كتفيه وابتعد قليلاً ثم توقف وتأمل في هذه السهوب الرائعة، تلك المراعي التي خيم فوقها سلام الجزيرة العربية الرعوي. وهكذا وقف وحيداً منعزلاً كأمير قيدار الذي تغطي خيامه وقطعان جماله وهضاب مدين وعفرا.

وأحاطت نظراته بهذه الوفرة ـ الخيرة كجنة الخلاص ـ التي تصورها تعج بقبيلته وقطعانها. ثم أطرق برأسه. كيف أستطيع أن أعبر عن الأفكار التي راودتني؟ عندما نظرت إلى الرأس المطرق وسط هذه الخضرة صحت بصورة لاإرادية «ليعش إسماعيل أمامك!» كان فارس حزيناً على قومه (الذين كان غريباً بينهم) مطرق الرأس تثقل عليه مأساة المراعي الميتة هناك في السهل الظامئ الذي تجوبه قبيلتنا. واعترت جسمه رعشة خفيفة، فسقط على ركبتيه ووضع رأسه على العشب يلمس الأرض الغالية بحنان وصاح بلوعة: «يا أمي!». كانت البرية وطنه الغني الجميل العزيز لأنه لم يعرف المدن إطلاقاً.

وقبل العودة إلى المخيم انتزع فارس باقات من العشب من جذورها؛ إذ على كل منا أن يعيد معه ملء ذراعيه ليدلل علىخصوبة الأرض التي استكشفناها.

عندما وصلنا إلى المخيم وجدنا مئات الرجال جالسين أمام عتبة خيمة طراد بن صطام ينتظرون أخبارنا عن الأرض في الشمال. أحضر العبيد الحطب والأعشاب الجافة ورموها على النار الهادئة. وسرعان ما اندلع اللهيب يفرقع ويعلو حتى السقف، وأصبح داخل الخيمة السوداء أحمر متوهجاً.

وفرشنا ـ دليلنا الصامت ـ أكوام العشب والحشائش والزهور التي لم تتناقص قيمتها بذبولها. وطوال الليل توارد القوم حتى من أقصى أطراف المخيم ليروا الأعشاب ويلمسوها. داعبوا الحشائش الطويلة بأصابعهم بابتهاج وحمدوا اللّه. وبين الفينة والأخرى أخذ ابن صطام ساقاً من النبات فانتقل من يد إلى يد حتى إن البعض رفعه إلى شفتيه صائحاً: «يا حياة!». وكلما عرض ابن صطام أحد هذه النماذج الغالية من مراعي الأعداء صاح قائلاً: «هاهي دلائل الحياة. قولوا لأبنائكم إننا سنتقدم».وقفز الرجال فوق ظهور خيولهم واختفوا في الليل ليعرضوا

رموز الأمل على نسائهم وأبنائهم وجيرانهم، وليحدثوهم عن عجائب مراعي المرتفعات.

في مساء اليوم التالي كنت أتحدث مع بعض الرولة بجانب النار في الخيمة الرئيسية، بينما بعضهم يأتي ويذهب، عندما سمعنا صوتاً مشهوراً يدعونا للقهوة. ودون أن يلاحظه أي منا دخل الأمير فواز وجلس. فصحت بصوت عال: «شكراً لله على عودتك!» سأتنازل عن مكاني لك بكل سرور». قدمت له مكان الشرف.

عاد فواز من الرطبة صفر اليدين. ثبت أن الشك في الخيانة من قبل ياسين به لا أساس له. ولكن الفرنسيين أصروا على قرارهم السابق، وأظهر البريطانيون عدم الاهتمام فلم نكسب شيئاً.

في هذه الحالة اقترحت على الأمير فواز أن يسمح لي بمحاولة الوصول إلى تفاهم مع أعدائه البدو. ولكنه لم يوافق على ذلك إلا بصعوبة متناهية. ليس لأن لديه شيئاً ضد تدخلي الشخصي في أمور قبيلته، بل لأنه خشي أن مثل هذه الخطوة نحو المصالحة سيفسرها أعداؤه على أنها دليل ضعف. وبعد أن تحادثت معه لوقت طويل وبددت مخاوفه قال فجأة: «حسناً بسم اللّه!ـ اذهب إلى ابن مهيد، ألم يكن صهري دائماً صديقك؟». وأرسل في طلب شقيقه مجحم وفارس وأمرهما بمرافقتي في مهمتي. وأرسل حرساً لنا: مناحي وعبد الكريم صديق فارس، وأحد زعماء ولد علي من سورية، وعبده سليمان.

استخدمنا سيارة نوري الشعلان المفتوحة لرحلتنا وتجنبنا كلّ ركّاب الجمال وخصوصاً عندما كانت ترافقهم الخيول.

بعد الظهر قصدنا مكاناً منعزلاً ومحميّاً من الريح في سفح هضبة صخرية، وجمعنا الحطب والجذور اليابسة لنشعل ناراً نشوي عليها الحباري التي اصطادها العبيد في الطريق. قطعت الطيور ورميت القطع على الجمر الحار، كما شويت الحواصل والأمعاء المملوءة بالأعشاب ، واليرقات شبه المهضومة بنفس الطريقة وأكلناها كمقبلات شهية.

كنا ننوي الاستراحة هنا لبعض الوقت. وكنا نتحرى المناطق المحيطة بنا من وقت لآخر من نقطة عالية طلباً للحيوانات الشاردة، أو البدو المحمولين، أو السيارات. ولكننا لم نر أي أحياء على امتداد البصر؛ إذ إن البريّة امتدت حتى الأفق دون أي تطفل.

أثناء تناول الطعام ضاحكين متمازحين انتصب أمامنا فجأة ستة رجال كما لو أنهم ظهروا من باطن الأرض. لا يمكن أن يكونوا قد أتوا إلينا على ظهور الخيول أو الجمال لأن محجماً وسليمان ـ قبل لحظات مسحا المنطقة المجاورة بالمنظار. لا بد إذن من أن الرجال الستة زحفوا على أيديهم وركبهم من مكان قريب اختبؤوا فيه. لم تكن لديهم بنادق، ولكنهم وجهوا إلينا مسدساتهم، أخفوها تحت عباءاتهم. لم يتكلم الرجال في البداية ولم يجرؤ أحد منا على الحركة. عندئذ بدأ اثنان من الغرباء بالجدال ناظرين إلينا بطريقة عدائية.

عابرو السبيل المشاة الذين يقابلهم المرء في الصحراء على هذه الصورة هم عادة قطاع الطرق والقتلة الذين لا يثنيهم شيء عن تحقيق أهدافهم. ليس هناك ما يجمعهم مع غزاة الأغنام والجمال الذين يركبون الذلل والخيول، والذين يمكن النظر إلى أفعالهم على أنها جزء من مغامرات الفروسية.

تبادلت النظرات مع فارس وتحسسنا تحت أمتعتنا على الأرض وصولاً إلى بنادقنا. والأن استطعت استجماع شجاعتي والتحدث إلى زائرينا المتطفلين.

ـ ماذا تريدون منا؟

ـ يعلم الله.

ـ كيف وصلتم إلى هنا؟

ـ من هناك.

ـ إلى أين ذاهبون؟

ـ إلى هناك.

ـ من أية قبيلة أنتم؟

ـ من بني آدم.

بدت الإجابات وقحة وخطيرة ولكننا معتادون على أساليب الصحراء. وقدم الغرباء أنفسهم بإجاباتهم الغامضة على أنهم قطاع طرق. فلو أجابوا عن أسئلتي بطريقة صريحة لجعلوا أنفسهم وقبيلتهم مسؤولة عن سلامتنا.

ولَكُنَّا في تلك الحالة نزعنا كوفياتنا وعقلنا أو لمسنا أحدهم بطريقة ما وطلبنا بالتالي حمايته. فحتى البصق على الرجل (وهي طريقة فريدة في اللمس) وبالتالي طلب حمايته مباح ومؤثر في إنقاذ الحياة إذا لم يكن في نفس الوقت حماية الممتلكات.

هؤلاء الرجال لا حاجة بهم للتقاليد العربية النبيلة. فهم ليسوا مسؤولين أمام أحد، وبإمكانهم قتلنا بدم بارد وإحجامهم لا يمكن فهمه.

وكمحاولة أخيرة على نوايا الغرباء عرض عليهم محجم السجاير فهزوا رؤوسهم بالرفض ولكن انتباههم شرد عنا مؤقتاً. وكالبرق اغتنم فارس الفرصة ورفع بندقيته وأطلق النار فوق رؤوسهم وأطلقنا ـ محجم وأنا ـ النار من تحت عباءاتنا حيث كنا بانتظار الإشارة.

وتراجع اللصوص الذين أخذوا على حين غرة. رمى اثنان منهم أنفسهم على الأرض بينما أطلق الثالث مسدسه علينا فخدشت رصاصته ذراع سليمان الأيسر فضغط على زناد بندقيته فأصاب اللص في فخذه. وأمر فارس ومحجم اللصوص الذين تبدلت أوضاعهم برمي عباءاتهم والاتجاه نحو الجانب الآخر فأطاعوا دون أية كلمة. وعندما سقطت العباءات عن أكتافهم رأينا أن حزام كل منهم يحمل مستودعاً صغيراً من الخناجر والمسدسات. أمرناهم بوضع مسدساتهم في قرابها ورمي أحزمتهم إلينا.

هؤلاء الرجال الستة ينتمون في الأصل إلى قبيلة الدليم، وقد حصل فارس منهم على هذه المعلومات باستجواب شامل ودقيق. وبما أن الدليم حلفاء الفدعان فإنهم في طريقهم إلى حلفائهم للحصول على الخيول والجمال. قطاع الطرق الكسالى من أمثال هؤلاء لا يحملون البنادق لأنهم يجدون أن الأسلحة النارية الصغيرة أكثر ملاءمة لأغراضهم.

والآن اعترفوا بصراحة أنهم ظنوا أن سيارتنا هي سيارة شيخ **العمارات** ولم يخطر بذهنهم أن سيارة رولة مسلحة يمكن أن تدخل منطقة الأعداء. ولكن عباءاتنا السوداء أو البنية فضحت هويتنا كأعداء محتملين لدى اقترابهم منا.

شكرنا نجمنا المحظوظ لهذه الغلطة التي أنقذت حياتنا وتركت اللصوص يتابعون سيرهم دون أي أذى ولكن بدون أسلحة أوذخيرة. وحملنا جريحنا معنا إلى مخيم ابن مهيد.

وقبل أن يغادرنا هؤلاء اللصوص وصلت بهم الوقاحة إلى درجة يطلبون منا الانحراف عن طريقنا وإيصالهم إلى جوار مخيم السبع لغزوه. يالهم من أوغاد أصيلين! وصحت بهم مندهشاً: «لكن السبع حلفاؤكم». فأجاب قائدهم: «وماذا في ذلك؟ إنكم أعداء السبع» فقال محجم متهكماً: «أيها الدليمي الشهم! إنك مخطئ. إننا في مهمة سلمية». فأجاب الرجل بتهكم مماثل: «الله! يالك من متأنف!» وأدار ظهره إلينا.

وتطايرت كوفياتنا وعقلنا مع الريح عندما أسرعنا فوق السهل المتماوج، ومن وقت لآخر ظهرت مجموعات صغيرة من راكبي الجمال والخيول فتوقفوا عند مرورنا يراقبوننا عن بعد.

كما لاحظنا أيضاً ثلاث سيارات موازية لنا عن بعد، لكنها غالباً ما اختفت خلف الهضاب أو في الوهاد. وبعد إحدى هذه المرات ظهرت على مقربة منا. توقفنا وأشرنا إلى السيارات فدارت حولنا وبنادقها جاهزة للعمل. ثم ترجل الركاب من السيارات وتقدموا نحوها وبنادقهم مصوبة إلينا.

وعندما اقتربوا صاحوا بأننا جواسيس أتوا لاستكشاف الأرض والمخيمات. وتعرف أحدهم على الجريح الدليمي وبدأ باستجوابه ولكن الجريح لم يجب بل كرر بأنه لن يتحدث إلا أمام الشيخ. وسمعت عرضاً بضع كلمات دلّلت على أننا نواجه خطر الموت الفوري، فوجدت من الضروري على الأقل أن أحذّر عقيدهم فقلت: «إننا في سورية. فليس ابن مهيد فقط بل الفرنسيون أيضاً سيعتبرونك مسؤولاً عن سلامتنا». فرد قائلاً: «برهنوا إذن عن نواياكم الصديقة». فعرضت

مرافقتهم إلى مخيمهم. قبل الرجل اقتراحي بعد أن سلمناه بنادقنا وسمح لنا بالاحتفاظ بمسدساتنا.

وسرنا خلف أعدائنا باتجاه شمالي شرقي، وبعد عدة أميال صادفنا أوائل الرعاة وقطعان الأغنام والإبل، وبعد نصف ساعة أخرى وقع نظرنا على مخيمات الحلفاء من الفدعان والسبع والعمارات: خيمة إثر خيمة بصفوف طويلة. وخلال هذه الفترة وصلت عائلات جديدة وجمال بأحمالها، واتخذت أمكنتها على السهل الواسع، بينما سارعت النساء والعبيد إلى نصب الخيام السود.

واقترب منا أحد معارف **برجاش بن هديب** وتعرّف عليّ. رافقنا إلى خيمة المجلس الكبرى حيث تجمع الشيوخ. وفي الطريق أخبرني أن بعض الفدعان زاروا قبل عدة أيام قبر **تركي بن مهيد** زعيمهم وبطلهم القديم في **عقلة سواب**.

كان تركي قد قتل في المعركة ضد الرولة على الرغم من أن ابنته تركية متزوجة من أحد زعماء الرولة صطام بن الشعلان. وكقربان لذكرى سلفه ذبح ابن مهيد جملاً سميناً فوق القبر «حتى يطّلع الله على ما في قلبه وينصره على الرولة». إنها عادة وثنية سابقة على الإسلام بين البدو والعرب.

يبدو أن ابن مهيد ومساعديه لم يقوموا بالاستعدادات المادية فقط، بل بالروحية أيضاً لمعركة حاسمة ضد الرولة.

عندما وصلنا كان أعداؤنا مجتمعين ومؤتمر الزعماء في أوجه. بدا ابن مهيد عجوزاً وأَضْفَتْ مرارة أفكاره قسوة على ملامحه. هذا الانطباع السيِّئ تعمّق بلحيته وحاجبيه التي صبغها بالسواد. التف على رأسه وحنجرته شال صوفي سميك على الرغم من الطقس الصيفي الدافئ. كان ابن مهيد يعاني من حمى الهزال التي أصابته ـ كما أصابت الكثيرين من الفدعان الآخرين ــ في أراضي الفرات المنخفضة المضرة بالصحة.

لدى قدومنا نهض ابن مهيد ومشى خطوة إلى الأمام ولكنه عندما تعرّف وجوه أعدائه تراجع وأشار إلى رئيس حرسه الخاص الأسود. ولم يلق بالتحية

المعتادة حتى علي، بل رمقني بنظرة سوداء. لحسن الحظ أدركت فوراً أننا وضعنا رؤوسنا في عش الدبابير، وهمست إلى رفاقي بألا يدخلوا حلقة الشيوخ بدوني مهما حدث، ولم تصدر عن الشيوخ أية تحية أو سواها، بل أشاح البعض بنظره بازدراء متفاخر. كان ابن مهيد يهمس بانفعال ـ وظهره إلينا ـ في أذن خادمه الشخصي الأسود الذي كان يستمع مطرق الرأس. وقف رجال الحرس وعيونهم على هذين الشخصين وأيديهم على أعقاب مسدساتهم في قرابها مستعدة لإشهارها.

في هذه الأثناء ـ وبدافع الغريزة أكثر من التصميم ـ جلست قرب ابن مهيد وأشرت إلى فارس ومحجم بالجلوس (كان عبد الكريم والعبدان ينتظرون في سيارتنا). وانفجرت الاحتجاجات الغضبة من كل فم ضد الحرية التي سمحتها لنفسي، مما جعل ابن مهيد يلتفت بدهشة. وتأمل فارساً ومحجماً بصمت وحاجبين منخفضين وعينين شريرتين. وتنبأت بل شعرت بالقتل يجول في ذهنه، فبإشارة منه ينهي صديقَيَّ وربما ينهيني أيضاً.

ولم يكن هناك مجال لإضاعة ولو جزء من الثانية. هتفت بالقهوجي الجالس قرب الموقد وصحت به «يا ولد! الله يقويك! نظر إليَّ العبد العجوز مجفلاً، ولكنه لم يجرؤ على الجواب وجال ببصره بخوف بيني وبين سيده. وفجأة أصدر ابن مهيد إشارة جعلت حرسه يسحبون مسدساتهم. وهنا خانتني آخر آثار الشجاعة والثبات وبدأت ركبتاي بالارتجاف. ولكن المسدسات لم تصوّب لأن فارساً ومحجماً كانا أسرع من الحرس. وبحضور ذهنيٍّ عظيم سحبا مسدسيهما وصوبا على ابن مهيد قبل أن يستطيع الحرس السود التصويب، وبالتالي لم يستطيعوا التصويب الآن.

هذا البرود ساعد على استرداد ثباتي وصرخت بالقهوجي لائماً: «هل ممنوع في بيت ابن مهيد أن تقدم فنجان السلام إلى الضيف الذي دخل حماه؟». وارتجف العبد عندما مدّ يده على مضض نحو الفنجان الصيني الصغير المقلوب رأساً على عقب، وأمسك مصب القهوة الكبير، والتفت بقلق نحو سيده. ونظراً

لعدم رغبتي في الانتظار أكثر من ذلك نهضت وأسرعت إلى الموقد وأمسكت بالفنجان وأخذت المصب من الجمر المتوهج ـ أحرق المصب أصابعي بشدة ولكني تحملت الألم ـ وصببت القدر المعتاد. ذهبت إلى ابن مهيد وقدمت له الفنجان مصحوباً بتحية السلام. نظر إلي برأس مطرق من تحت حاجبيه المنخفضين.

لا بد أن يخضع لقانون الصحراء. لا بد أن يقبل الفنجان المعروض عليه، كما أنه لايستطيع التلاعب بحياة صديقيّ دون المجازفة بحياته، فعند أول حركة عدوانية سيخترق الرصاص جسمه، لأن فارساً ومحجماً لا يزالان يصوبان مسدسيهما نحوه. أشاح بوجهه عني، ولكني وضعت يدي على كتفه قائلاً «السلام»، فالتفت ثانية وفي عينيه شعاع جنوني ولكنه على الرغم من وجهه الغضب فتح فمه الآن ليبادلني السلام، وطلب مني الجلوس في مقعده.

عندئذ تجرأ فارس ومحجم على خفض مسدسيهما، لأن كلمه «السلام» صدرت من فم مضيفنا رسمياً وكدّس العبيد لنا الوسائد أمام شداد الجمال. عندها أخذ ابن مهيد نفسه فنجان القهوة من يد العبيد وقدمه إليّ قائلاً: «يا هلا! عساك بخير!»، وكرر هذه الكلمات مرتين مما جعلها ضمانة للسلام والسلامة، مما جعل فارساً ومحجماً يشربان معه أيضاً.

بالنسبة لنا ـ نحن المعتادين على الحضارة الغربية ـ مثل هذه السلسلة من الحوادث ونتائجها لا بد أن تبدو مستعصية على الفهم، ولكن بعد أن يعيش المرء لفترة من الزمن بين البدو، يفهم أن القوانين غير المكتوبة للنظام الاجتماعي البدوي مناسبة لظروف الحياة في الصحراء وكافية ـ منذ قديم الأزل ـ للوفاء بمتطلباتها المتعددة. ولولا قواعد اللعبة هذه (في الحقيقة) لكانت كل معالم الحياة البشرية في الجزء البدوي من الجزيرة قد زالت منذ وقت طويل.

وبعد أن طلبت الإذن بالكلام ومنحني إياه ابن مهيد أعلنت عن غرض مهمتنا، وألححت على الشيوخ المجتمعين بكل ما أوتيت من البلاغة أن يسالموا الرولة ويقاسموهم المراعي ـ كما في السابق ـ كأخوة لهم. وركّزت على محاسن

الوحدة ومساوئ التفرقة، وعززت حجتي بالإشارة إلى أنهم بسياستهم الحالية إنما يقعون في أيدي القوى الأجنبية التي ستقوم بالقضاء التام على الجميع بعد إضعاف القبائل البدوية إفرادياً. واستقبلت حججي ومناشداتي بصمت بارد، إذ جلس معظم الزعماء برؤوس مطرقة ونقروا الأرض بعصيهم في ملل ظاهر، ولكني تأكدت بأن عدم مبالاتهم تظاهرية، ولذلك لن أقع فريسة اليأس، وعدت مرة أخرى إلى مهمتي، فجمعت كل إمكاناتي في الإقناع، وضاعفت جهودي لإبراز فوائد النية الحسنة والسلام العادل أمام أعينهم. وفي النهاية نجحت في إقناعهم بالإقلاع عن سكوتهم العدائي والدخول في نوع من الحوار معي. ولكن يخطئ كل من يظن أنه بالإمكان إقناع البدو بسهولة. ومرّت الساعات حتى قاربنا منتصف الليل، وعندها طلب فارس الإذن بالكلام باسم الأمير فواز فوافق ابن مهيد. قال فارس «السلام! حقاً إن عدو الحياة يضغط على الأحياء. والحليب من صدر الصحراء انقلب إلى غبار، والعطاش يتذوقون المرارة، فآبارنا قد جفّت ، ومراعينا قد أحرقتها الشمس، وجمالنا تهلك في أرض الجوع والعطش، وألوف البشر تهلك في دروب الأرض، ونحمد الله على أنه لا يزال يغمركم بنعمه، ولكنه أقفل السماء بالنسبة للرولة. إننا لم نأت إليكم أعداء، ولكننا نريد أن ندخل مراعيكم ضيوفاً عليكم». وأثّرت كلمات فارس إلى حدّ كبير لأنه تحدث بصفته بدوياً وتكلم باللغة التي يفهمها الجميع.

انسحب الشيوخ ووقفوا لمدة حوالي نصف تحت النجوم وبين الجمال والخيول والأغنام يتناقشون ويتجادلون. بعدها عاد الشيخ وجلسوا بصمت متحلقين حول الموقد. ولكن **راكان زعيم السبع** لم يعد، وهي إشارة إلى أنه اختلف مع ابن مهيد والآخرين حول شروط السلام. كنا نعرف أنه أكثر أعدائنا خداعاً ومكراً. وخطر لي في الحال أنه سينصب لنا كميناً في طريق عودتنا. وبعد أن دار فنجان القهوة مرة أخرى اتكأ ابن مهيد على وسائده وقال بوقار: «أيها المجتمعون! إننا نرغب في الحفاظ على السلام مع الرولة، ولكن شاء الله أن تنشب الحرب بين فواز بن شعلان وطراد بن ملحم (زعيم قبيلة ولد علي) وبين شيوخنا؛ ولذلك نقرر أن يعم السلام بين القبائل وتقتصر الحرب على

الزعماء!»وعلى ذلك مدّ لي ابن مهيد يده التي تلقفتها وشكرته وبقية المجتمعين على استعدادهم لتقاسم مراعيهم خلال الصيف القادم مع الرولة وولد علي، والسماح للقبائل بالعيش في وئام جنباً إلى جنب. كما عبّرت عن أملي في أن يعم السلام بين الزعماء المتحاربين الآخرين.

من العبث الآن هدر الكلام من أجل نبذ الخلافات بين الشيوخ، وإذا أنجز ابن مهيد وعده بالسلام بين القبائل فسأكون أكثر من مسرور بنتيجة رحلتي. إنها تقترب من المعجزة.

كان الظلام مخيماً عندما استيقظت على قرقعة أواني المطبخ، حيث كان الطباخ يضع أواني الماء على النار المتوهجة. وعند عتبة الخيمة وسط الدخان اللاذع وقفت الفرس العجوز التي حملتني إلى هذه الخيمة بعد المؤتمر. خرجت من الخيمة. والوقت ما زال ليلاً ولكن النجوم شاحبة، وفي الشرق غطت أضواء الفجر الرمادية الخضراء الصحراء بحجاب رقيق. وبين حبال الخيمة كانت جمال مضيفنا تجتر طعامها، وخلفها امتدت السهوب المتماوجة وانتشر منها عبير منعش. في كل مكان خيّم الهدوء والسكينة وهذا ملأني رعباً. أين الخيام والقطعان التي غطت المنطقة عند منتصف الليل؟ ركضت في المكان لمسافة قصيرة وتطلعت حولي فلم أجد هناك أية خيمة أخرى، وبالتالي كانت خيمتنا كسفينة مهجورة وسط البحر.

اعتراني شعور بالوحدة لأول مرة في حياتي بين البدو. وجدت نفسي مع قليل من الرفاق حيث خيّم حولنا في مساء اليوم السابق الآلاف من البشر. قوّض البدو خيامهم بهدوء وذابوا كالسراب مع نسائهم وأطفالهم وقطعانهم. ناديت «فارس! محجم!» وذهبت لأوقظ النائمين. وظهر أيضاً الشيخ نايف الصالح الذي نمنا في خيمته فأخذت يده وسألته: «ماذا يعني هذا؟» فأجاب: «أنت تسأل ماذا يعني هذا؟ ابن مهيد لا يتراجع في كلامه، والوعد الذي قطعه لك في المساء ينجزه هذا الصباح». لقد جلا ابن مهيد عن مراعيه ليفسح المجال للرولة! وأشار نواف إلى مجموعة من الأشخاص في البعد أصبحوا الآن واضحين في النور

القوي. وبدا عليهم أنهم يستريحون حيث كانت خيمة ابن مهيد في الليلة السابقة. ركبنا إلى المكان فوجدنا ابن مهيد نفسه مع ستة من حرسه يجلسون على سجاداتهم متربعين كعادة البدو وبجانبهم كومةمن الرماد والأحجار الثلاثة السوداء التي انتصبت فوقها ركوة القهوة في الليلة السابقة. وأشعّ منقل نحاسي بعض الدفء المريح في برد الصباح. جلس ابن مهيد وهو يضع أكمامه الواسعة فوق المنقل. نهض ابن مهيد عند مقدمنا، وعندما ترجلت اتجه نحوي وضع ذراعه بأبوة على كتفي وقال بسرور: «يا بني! هل ترى أن ابن مهيد قد صدق الوعد؟». ولكن عينيه قالتا أكثر مما قالت كلماته القليلة. أمسكت بيده اليمنى وضغطت عليها بامتنان بكلتا يدي مودعاً: «حقق الله الآمال!» وصاح في إثري: تعال لزيارتي هذا الصيف وانصب خيمتك مع الفدعان. صحيح أنك رولي ولكننا نعدُّك واحداً منا أيضاً. ليكن الله معك أينما توجهت!».

* * *